أنغام الموت في (مجرى العيون) لسعيد الكفراوي

كتبه عبد الرحمن أبو عوف

يؤكد القصاص المبدع (سعيد الكفراوي) في مجموعته القصصية الأخيرة (مجرى العيون) امتلاكه بجدارة قدرات الإحكام الشكلي والبنائي الأسلوبي، لتقديم عالم وأساطير ومثل وأعراف القرية المصرية، كسر لتكوين الشخصية المصرية وتحولاتها. وأن قدرا من قصص هذه المجموعة، تلتقط برهافة ورشافة من عالم ولحمة ووجدان القرية المحيط به عن طريق العطف والفهم نظرة خاصة إلى الأشياء. إدراكا بديهيا لما هو قيم وما هو تافه. وهذا الإدراك هو لب فنه، هو الخلاصة الشعرية التي تكمن خلف قصصه.

لقد أدرك بتلقائية واعية مرهفة أن كاتب القصة القصيرة لا يبني عالما بل يشق طريقا. لا يرفع هرما، بل يصنع مسلة، لا ينقلنا إلى جوه بمئات التفاصيل التي تحيط بالمشكلة، بل يقنعنا بالمشكلة نفسها. لهذا كانت القصة القصيرة شبيهة بالشعر، فهي ليست صنعة تفكير، ولا صنعة هندسة بل ولا صنعة خيال بقدر ما هي صنعة حساسية.

إن كلية إبداع سعيد الكفراوي في مجموعاته السابقة: ١- مدينة الموت الجميل ٢- ستر العورة ٣- سدرة المنتهى ٤- بيت العابرين، تشكل خطابا قصصيا تتحدد وتتكون مضامينه ورؤاه وتشكيلاته من عتمة وضمير وتكوين جو وبيئة ولحمة عبق الحياة القرية المصرية في حضورها المأسوي العنيف وبعدها التاريخي الحضاري المتراكم. وتلتقط ببصيرة واعية، نماذج إنسانية شديدة الالتحام والخصوصية بالأرض والطين والنيل والزرع والحيوان والطير تطحنها عبثية دورات الحياة الأبدية. حيث الميلاد والموت، البراءة النزالة، الشجاعة الجبن، والحلم والواقع، ويتوازى في بنائها القصص المجازي والمتخيل، العيني والوهمي، الحقيقي والمتخيل، الجزئي والكلي، النسبي والمطلق، ليقدم معطى حياة صاحبة، لاهية مأسوية مليئة بالضعف والعنف.

لكن ذلك ومن واقع تحليلنا لهذه القصص، نجد انطباعا أوليا. إن تعبير سعيد الكفراوي القصصي يضع على عاتقه مهمة إعلاء شأن الكائن على حساب الملكية. وهو يعبر عن الحاجة إلى تحقيق الكيان الإنساني في مواجهة كل ضروب الانسلاخ. إنها في النهاية قصص تدعونا إلى الصيرورة أكثر مما تدعونا إلى الفهم.

ويتبدى الموت بكل ظلاله وتعدد مستوياته في معظم قصص المجموعة محورا أساسيا، الموت كعبث، كقدر محتوم، كمقابل للحياة.

إن كلا من قصص العار و(الرحا) و (الخوف القديم) و(عزاء) و(مجرى العيون) و(الشرير والجبل) و(نظرة عين) كل هذه القصص تجليات للموت. وتقدم بمهارة لحنا رئيسا له تنويعاته وأنغامه المتصاعدة تعطينا مكونات رؤية ذات شمول حتى يتجاوز نسق الممكنات الإنسانية المحددة بالضرورة. وهي تنحت صورها المجازية المعتمة من سطوة المجهول والمقدر والمكتوب ويسري فيها نغم سري من السخرية.

نصل إلى القصة (مجرى العيون) وهي قصة تعنى بحملنا إلى الشعور بشيء من العذوبة الفاتنة، بأن في الحياة الإنسانية سرا مخيفا وأننا نستشف من خلال لحمة الوجود التافهة معناه الرمزي في بعض الأحيان.

ويظل مجرى العيون شاهدا ورمزا لاستمرار هدير الحياة وصخبها ودالا للتجاوز وقهر العقم وعبث الموت، وحين تغلق الدروة القصصية بعد أن تنتج لجمة حياة عشرات من الأفراد في نهاية مصائرهم، فإن الملحمة السردية الوضعية للقص تترك البشر مسحوقين، مفرغين متيبسين، لقد عاشوا، أما الحياة فتتابع مجراها غزيرة قاسية تستخدم أفرادا آخرين، وتسحقهم، وهؤلاء الأفراد في سعير الحيوات البشرية لقيهم. يعطون الآخرين خلال بعض عشرات من السنين حرارتهم الفردية.

هذه قراءة مجموعة (مجرى العيون) تعطينا اليقين أن النص القصصي عند سعيد الكفراوي ينجو عضويا من الذاكرة الشخصية. وإذا كانت في الحقيقة كينونته قد كتبت على شكل متفتن (أي مرتدية مسرح الفن) فإن الأصل فيها أنها ليست متفنتة، وليس لديه الرغبة في تنظير عمله، فهو يكتب لكي يكتشف ذاته بالدرجة الأولى، فهو يعالج برشاقة ولمسة خفيفة وهمس هفيف أشد المواضيع عذابة ومخاتلة وهو الموت، ولكن يقف وراء عالمه القصصي عقل هو في الوقت نفسه صاح وحديث ومتناغم بدقة مع حرقة المشكلة الإنسانية، إنه يعطينا الانطباع (أن المرء ليمل من مشاهدة الطبيعة والموت، ولكنه لا يمل القلب البشري).

وهذا هو توحد الإنسان مع الفن ليستعيد إنسانيته رغم كل ندوب التآكل وقهر القدر وعديمته.